الأخير، قول سياسي لا شجاعة فيه. فمن المفترض منطقياً، وفي أزمة الهزائم، أن يعود المثقفُ إلى الموروث الثقافي القادر على مواجهة الهزيمة، أي إلى الموروث الذي يحتفل بالإنسان قيمة وفكراً ووجوداً وطاقةً مبدعة، وهو ما قال به الفكرُ التنويري. غير أنّ سياق الهزيمة، والعناصرَ الكثيرةَ والمتكاثرة التي تصوغ السياق وتدعمه، تطوِّح بالمثقف العربي المسيطِر الى أماد نقيضة، فيحتفل بالشأن العارض والمريض؛ فإنْ وَصَلَ إلى النّص التنويري هَجَاه وسفَّهَه وزوَّره، ناسياً، أو متناسياً، أنّ هذا النص هو الذاكرة الثقافية العربية الحديثة كلها، التي احتضنت الأدبَ والروايةَ والفنَّ وجميعَ الأسماء الثقافية العربية الكبيرة: بدءاً من الطهطاوي، ووصولاً إلى جمال حمدان، ومروراً بكل ما هو نقدي ومضيء في الفكر العربي المعاصر.

أحوال الفكر التنويري في مرايا التنكيل

هل الهزيمة العربيةُ الراهنة هي حقاً نتيجةٌ للحداثة العربية وللفكر التنويري اللذين « تجسَّدا» في السلطات العربية القائمة؟

يرى الدكتور برهان غليون، وهو مفكر نبيه أربك السياقُ إمكانياتِه المبدعةَ، أنّ الهزيمة العربية القائمة نتيجةٌ للحداثة العربية وأثرٌ لها، أي نتيجةٌ للفكر التنويري الذي تشخصَنَ وتجسّد في السلطات العربية القائمة. وقول كهذا ينطلق من «بداهة غامضة» تعتقد أنّ الفكر الحداثي العربي وصل إلى غايته وحقَّقَ أهدافه في دول عربية قائمة أخذتْ بمقولات الفكر الحداثي وطبقَتْ مناهجه. وبإمكان هذه «البداهة المغتبطة» أن ترمِّم قولَها وتجمّله، كأن تتحدث عن أزمة عالمية للحداثة تحوّلتْ في شكلها العربي إلى هزيمة. لكنّ التجميل النظري لا يُقْنع في شيء، لأنّ صاحب القول يُلغي، منذ البداية، مقولاتِ التبعية والصدام المتواتر بين المشاريع الوطنية والاستعمار، ولا يتذكّر أنّ هزيمة المشروع الناصري، وهو مشروع حديث، لم تكن ممكنةً دون الدور الكبير الذي لعبته القوى الاستعماريةُ، وأمريكا بشكل خاص، في دحر المشروع النهضوي العربي. وواقع الأمر أنّ الفكر الحداثي العربي، وفي شكله الأكثر ارتقاءً، لم يكن يهجس بالسلطة، بمعنى الاستيلاء على آلة الدولة واحتكارها، بل كان يدعو إلى ارتقاء أخلاقي ومعنوي اجتماعي، أي كان يرى في ارتقاء المجتمع طريقاً وحيداً للوصول الى دولة راقية؛ وهذا ما دعاه طه حسين بـ «الإنسان الممتاز» الذي عليه أن يعي معنى السياسة قبل أن يشارك في «الانتخابات». وبهذا المعنى فإنّ الفكر التنويري العربي كان يحلم بمجتمَع يحقق سلطته، ثم يتّكئ على سلطته المجتمعية كي يصل الى أطرافِ سلطةٍ جديدة تعبِّر عن إرادته الكلية.

وعلى مقربة من برهان غليون يجلس جمال باروت ليحدّث عن «علمانية النخبة وإسلامية الأمة». غير أنّ باروت ينسى أمرين، أولهما: أنّ «العلمانيّة»، بمعناها الأوروبي، لم تشكّل أبداً متكأ للفكر التنويري العربي وقواماً له؛ وثانيهما: أنّ الفكر التنويري العربي لم يتنكر للإسلام أبداً، بل دعا إلى إصلاح ديني وإلى ترهين المقولات الدينية. فإذا كان الفكر التنويري الأوروبي قد رأى في العلمانية سلاحاً حادّاً يقاتِل به كنيسةً متزمتةً تحالف النظام الإقطاعي الذي تقاتله البرجوازيةُ الأوروبيةُ الصاعدة، فإنّ الفكر التنويري العربي كان مشغولاً بتحديث اجتماعي شامل، يحاصِر التأخر من ناحية ويسمح للمجتمع العربي أن يقاتل السيطرة الاستعمارية بشكل صحيح من ناحية أخرى. وإضافةً إلى ذلك، فإنّ المثقف العربي المستنير، سواء تمثّل ذلك في النديم أو في الكواكبي أو في طه حسين وأحمد أمين، كان يتطلع إلى تحرير النص الديني الإسلامي من قيوده المتوارثة وإطلاقه نصاً جديداً يتعامل مع مستجدّات التاريخ والحياة؛ أي كان يسعى إلى نقل النص الديني من شكله الشكلاني الفولكلوري ـ وهو شكل أنتجته السلطة المستبدّة وتعمل على إعادة إنتاجه ـ إلى شكل تاريخي يتجدّد فيه النصُّ الديني بحواره مع أسئلة الحياة المتجددة، ويترهّن فيه الموروثُ الدينيُّ بالتعامل مع القضايا اليومية والوطنية، بعيداً عن البلاغة الجاهزة والإجابات التي لا تحتاج الى زمان ومكان لأنّها تحوّم فوقهما باستمرار.